

الذين كانوا معسكرين في انطاكية ارض سلوقية الواقعة على الساحل وشجعهم على تعميرها وزرعها^(١) وكذا فعل الامويون في انطاكية وطرسوس ومرقية وبيانياس^(٢).
اما الخليفة عبد الملك فقد اقطع قوما من المرابطة اراضي بعسقلان وحينما تم فتح الطرطوس ومرقية وبليناس وجلا عنها اهلها اقطع اراضي فيها للمقاتلة^(٣) كذلك الحال عندما ترك اهالي بالس وقاصرين وعابدين وبوبلس وصفين قرأهم اقطع ابو عبيدة تلك الاراضي الى جماعة من المقاتلة^(٤).

وادخل الامويون مظهرا رابعا من مظاهر التطور الاقتصادي في مجال الزراعة الا وهو القبالة او النقبيل الذي يعد بمثابة الكفالة او الضمان. وتوضيح القبالة ان يجعل المرء لنفسه وكيل (قبلا) يحصل باسمه الخراج وياخذه لنفسه لقاء اجر محدود يدفع له. وفي الغالب يكون هذا القبيل او الكفيل من اصحاب النفوذ السياسي والاداري لهذا السبب عد بعض الصحابة والفقهاء هذا الاسلوب بانه حرام وكرهوه فقد ذكر ان ابن عباس قال: القبالات حرام الاموال^(٥) وذكر ان ابن عمر قال: ان القبالات ربا^(٦).

واعتمادا على عدد من الاستشهادات فان عدداً من الخلفاء الامويين قد مارس هذا الاسلوب الاقتصادي، اذ اورد الجشباري: ان ابا المثنى مروخ كان يتقبل لهشام بن عبد الملك اراضية وكان هشام يستفيد بذلك تعجيل الحصول على الاموال بينما يكسب ابو الثمنى (المتقبل) الفرق بين ما يدفعه الى هشام وبين ما يحصله فعلا من القبالة^(٧).

انجازات الامويين في مجال الزراعة

ومع ما في تلك المظاهر الجديدة التي استحدثت ايام الخلافة الاموية من نتائج سلبية ادت بمرور الزمن الى ان تتحول الكثير من الاراضي الخراجية الى اراضي عشيرة وكذلك تنامي الممتلكات الزراعية والاراضي الزراعية لبعض الافراد على حساب الملاكين الصغار فانها - اي هذه المظاهر - تؤكد بوضوح على مدى اهتمام الامويين، خلفاء وامراء، المترابدين بالشؤون الزراعية وفي

(١) البلاذري، فتوح، ص ١٥٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٨، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٩، ١٥٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٨ / ١٥٦.

(٥) ابو عبيد: الاموال، ص ٧٠.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) الجشباري: الوزراء والكتاب، ص ٦١.

تتمية الموارد القائمة على هذا النمط من الانتاج وفي التاريخ ادلة عديدة تبين بجلاء هذا التوجه والاهتمام بالزراعة وشؤون الارض.

لقد شجع الخلفاء الامويين على توسيع رقعة الاراضي الزراعية المنتجة في اجزاء مختلفة من العالم الاسلامي وتمثل هذا التشجيع بأوجه متعددة. أهمها

١- العناية بحفر الانهار:

ففي غوطة دمشق مثلاً حفر يزيد بن معاوية قناة عرفت باسم نهر يزيد محاولة في اصلاح عملية الري في هذه المنطقة الزراعية المشهورة من بلاد الشام.

وبشير ابن عساكر الى ان الضياع التي كانت في المنطقة التي يجري فيها هذا النهر قد هجرت ولم يبق لها وارث ايام معاوية فاحذها هذا الخليفة، ولما تولى الامر يزيد وجد ان هذه الاراضي الواسعة تنقصها المياة فحفر عند النهر بسعة ستة اشبار^(١).

وذكر ابن عساكر ايضا ان مياة نهر بردى في بلاد الشام قد قلت زمن خلافة سليمان الى درجة كبيرة بحيث ادت الى ان يشتكي الناس من خطورة الموقف الامر الذي دفع الخليفة الى ان يبعث الى مولاه عبيده بن اسلم ليكري ماء العين، ويبدو ان مشكلة شحة المياة ظلت قائمة بعد عملية اكراء العين فامر هشام القاسم بن زياد الى ان (يحيز لهم الاناهر فحازها)^(٢).

اما البلاذري فقد اورد لنا ان الخليفة عبد الملك ولي ابنه سعيد ولاية الموصل، والى سعيد هذا يرجع الفضل في حفر نهر سعيد في الموصل، وقيل ان موضع هذا النهر كان عبارة عن غيضة تسكنها السباع فلما اقطع الوليد بن عبد الملك هذه الغيضة له قام بحفر النهر فأدى الى اعمار الاراضي فيها^(٣).

وعندما توجه مسلمة بن عبد الملك غازيا ضد الروم عسكر بمدينة بالس فشكى اهله واهالي قرى بولس وعابدين وقاصرين وصفين وهي قرى محيطة بمدينة بالس من شحة المياة فامر مسلمة بحفر نهر متفرع من الفرات لري تلك الاراضي فدر هذا المشروع على الاهالي الخير الوفير باحياء اراضي تلك القرى فجعلوا لمسلمة ثلث غلاتهم بعد عشر السلطان.

وفي عهد الوليد بن عبد الملك عندما ولي سليمان جند فلسطين احدث هذا الوالي مدينة الرملة ومصرها وبنى فيها قصره ودار الصباغين وحفر للاهالي قناة تعرف بنهر بردة كما حفر لهم أبأراً

(١) ابن عساكر: تهذيب التهذيب، ج ١، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤٦.

(٣) البلاذري: فتوح، ص ٢٢٨.

وقد استثمرت مائة هذه المشاريع لري الاراضي^(١) ويعقب البلاذري ان خلفاء بني امية كانوا ينفقون على ابار الرملة وعلى قناتها بعد سليمان بن عبد الملك.

وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز مهتماً بشكل واضح بتحسين وسائل ري الاراضي وكان دؤوباً على تشجيع الولاة على شق الانهار والترع وعلى تحسين اوضاع الفلاحين وعلى الغاء الضرائب التي كانت تعيق تنمية وتطوير الاراضي الزراعية، ومن بين هؤلاء الولاة عدي بن ارباطة والي البصرة اذ كتب الى الخليفة بشأن حفر نهر لاهالي البصرة فاذن له فحفر نهرين وقد خرج اهالي البصرة الى ذلك الموضع الذي تمت فيه عملية الحفر ليراقبوا العملية^(٢).

كما عرف الخليفة هشام بن عبد الملك باهتماماته الواسعة في تلك الاراضي وتنظيم وسائل الري فيها فحفر نهري الهني والمري بالقرب من (الرقبة) و(الرافقة) وقد ساعدت هذه المشاريع على تنمية الاراضي الواقعة على هذين النهرين لتصبح ضياعاً، وكان ياخذان مياهها من نهر الفرات ويسقيان البساتين بحيث ان الشاعر الصنوبري وصفهما قائلاً:

بين النهني الى الممر ي الى بساتين النقار^(٣)

ونظراً لكثرة الاراضي العائدة الى هشام فقد عين وكبلاً له ينظر في انتاجاتها وما تحتاجه ولم يقتصر امر العناية في الاراضي الزراعية والاهتمام بتطوير مشاريع سقي الاراضي وحفر القنوات والانهار على خلفاء بني امية فقط انما تعدى ذلك الى الولاة والعمال وقد حظيت اراضي العراق في البصرة والكوفة وواسط والبطائح بعناية كبيرة. فالى زيادة بن ابي سفيان، الذي كان والياً على الديوان ايام ولاية عبدالله بن عامر، يرجع الفضل في حفر نهر الابلة. كذلك يرجع الفضل في حفر نهر معقل المشهور في البصرة الى معقل بن يسار خلال ولاية زياد على البصرة اثناء خلافة معاوية، كما حفر مولى لزياد نهراً اسمه نهر دببس.

ويذكر البلاذري ان حفر نهر بشار في البصرة ينسب الى بشار بن مسلم الباهلي اخ قتيبة بن مسلم، وكان بشار قد اهدى الحجاج الثقفي فرساً فسبق عليه فاقطعة سبعمائة جريب من الارض (او اربعمائة جريب) ولاجل استثمار هذه الارض حفر بشار نهراً حمل اسمه^(٤).

وهناك انهار اخرى حفرت اثناء ولاية زياد منها نهر ذراع نهر حبيب ونهر ابي بكر ونهر مكحول ونهر البراء وشمل زياد اهل بيته في تملك الاراضي وتطوير احوالها الزراعية، فيذكر ان نهر

(١) البلاذري: فتوح، ص ١٤٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٦٣.

(٣) البلاذري: فتوح، ص ١٤٨؛ باقوت الحموي: معجم، ج ٥، ص ٤١٩.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٣٢٥، ٣٥٣، ٣٥٥.

النبات في البصرة ينسب الى نبات زياد اذ اقطع كل ابنه ستين جريباً من الارض وحفر لهن هذا النهر ليسقي تلك الاراضي^(١)

وينسب نهر المرغاب الى بشير بن عبيد بن ابي بكر وكان يجري في قطيعة اقطعها يزيد بن عبد الملك الى مرغب هذا وبلغت مساحتها ثمانية الالاف جريب^(٢) وينسب نهر زيد الى يزيد بن المهلب الذي حفرة لارواء قطيعته كما حفر عمر بن هبيرة نهر ملهليان لارواء قطيعة اقطعها له يزيد بن عبد الملك^(٣). وحفر الحجاج الثقفي نهر العين في منطقة واسط كذلك حفر نهر النيل والزابى فاصبحت هذه الانهار عصب الحياة للاراضي الواقعة على جانبيها^(٤) وحفر والي الموصل الحر بن يوسف نهر المكشوف بغية توفير مياه الري للاراضي هناك وقد بدا العمل بحفره سنة ١٠٧هـ وانفق في حفره ثمانية ملايين درهم ثم اكمل حفره ايام الوليد بن تليد عام ١٢١هـ^(٥).

٢- استصلاح الاراضي:

كانت عناية الخلفاء الامويين وامرائهم وولاتهم بتحسين مشاريع الري مدفوعة بدافع اقتصادي الى درجة كبيرة وادى هذا بمرور الزمن الى احياء الكثير من الاراضي الموات والاراضي التي هجرها اهلها وتلك التي غطتها المياه فلم تعد صالحة للزراعة، وبذلك فقد ساعدت عمليات حفر الانهار والترع الى اعادة الحياة لهذه الاراضي مما جلب الخير الوفير.

ان عملية استصلاح الاراضي لاغراض الزراعة لم تكن عملية مقصورة على الخلفاء الامويين وحدهم انما كانت عملية واسعة تمتد جذورها الى زمن الرسول الكريم(ص) والخلفاء الراشدين. فيقول رسول الله(ص) ما نصرة (من احيا ارضاً مواتاً فهي له) و(من امر ارضاً ليست لاحد فهو احق بها)^(٦).

وسار الخلفاء الراشدون على النهج نفسه، فورد عن الخليفة عمر(رض) قوله(من احيا ارضاً ميتة فهي له، وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين)) اذ ان العادة كانت جارية بان اشخاصا كانوا يحتجرون من الارض ما لا يعمرونه^(٧) وقال يحيى بن ادم ان رجلاً جاء الخليفة علي بن ابي

(١) البلاذري، فتوح: ص ٣٥٦، ٣٥٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٥٨.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٥٩.

(٤) البلاذري: فتوح: ص ٢٨٨، ٣٦٠، ٣٦٢.

(٥) الأزدي: تاريخ الموصل، ص ١٦٤، ١٥٦.

(٦) ابو يوسف: الخراج، ص ٦١، ٦٤، ٦٥، ١٠١.

(٧) المصدر نفسه: ص ٦٥.

طالب (ع) فقال له: ((أتيت أرضاً قد خرجت وعجز عنها أهلها فكربت أنهاراً وزرعتها قال: كن هنيئاً وانت مصلح غير مفسد، معمر غير مخرب))^(١).

وقد اتسع نطاق أحياء الأراضي وأصلاحها للزراعة أيام الأمويين، وصار الخلفاء هم المسؤولون عن منح الأذن للأشخاص الذين يرمون أحياء الأراضي ولمقولة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز أهمية كبيرة في هذا المجال، ويعد امتداداً واضحاً لنظرية الرسول (ص) والخلفاء الراشدين في أحياء الأراضي إذ قال: ((من غلب الماء على شيء فهو له))^(٢).

فمعالجة أي فرد في إزالة المياه عن أرض مغمورة بالمياه وأصلاحها بعد أن كانت كذلك إما عن طريق النرح أو عن طريق التسهيل حتى ينضب عنها الماء فتكون بذلك المستصلحة لمن يحيها، فحكم هذه الأرض حسبما رأى الخليفة عمر بن عبد العزيز أن تكون لمن فعل ذلك ونرح المياه عنها.

لقد كانت هناك عمليات استصلاح متعددة في الكثير من المناطق، ارتقى بعضها إلى مصاف المشاريع الضخمة لاسيما مشروع إعادة استصلاح البطائح، في حين قد نفذت مشاريع أقل أهمية من ذلك فتذكر الرواية أن الوليد بن عبد الملك أقطع سعيد بن عبد الملك نهره الذي كان يأخذ مياهه من نهر الفرات، وكان في الأصل غيضة فيها سباع فأعطاه إياها فعمرها واستصلحها فصارت تعرف باسمه وصار النهر يعرف باسم ((نهر سعيد))^(٣).

أما البطائح (الاهوار) فإنها منطقة واسعة تقع بين واسط والكوفة شمالاً والبصرة جنوباً تكونت إما في سنة ست أو سبع هجرية على أثر زيادة المياه في نهر الفرات زيادة عظيمة أدت إلى غرق هذه الأراضي بسبب إهمال كسرى فارس أبرويز في سد البثوق والسيطرة على الفيضانات، ويذكر البلاذري أن زيادة الفرات أدت إلى غرق عدة طساسيج ويسانين واتسعت مساحة أراضي البطائح أيام الخلفاء الراشدين فعندما تولى الأمويون الأمر قام بعض خلفائهم وأمرائهم باستخراج واستصلاح مساحات واسعة من أراضيها مما يذكر أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان ولي عبدالله بن دراج مولاه مسؤولية خراج العراق فاستصلح عبدالله للخليفة الأراضي من البطائح فقدرت قيمة غلة هذه الأراضي المستصلحة بخمسة ملايين درهماً فقد قام أولاً بقطع القصب الذي كان غالباً على البطائح ثم سيطر على المياه ببناء المستنبات^(٤) لكن يبدو أن عملية عبدالله بن دراج هذه لم تكن محكمة إلى درجة كبيرة كما أنها لم تكن واسعة، إذ يذكر البلاذري أن السدود والبثوق قد انفجرت

(١) أبو عبيد: لأموال، ص ٨٥.

(٢) أبو عبيد: لأموال: ص ٢٨٤.

(٣) المصدر نفسه؛ ياقوت معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٦١.

(٤) البلاذري: فتوح، ص ٢٩٠-٢٩١.

مرة اخرى خلال خلافة عبد الملك بن مروان حينما كان الحجاج الثقفي واليا على العراق في حين ان هناك رايا اخر يقول ان هذا النوالي قد اهمل السيطرة على البثوق لاسباب سياسية-اقتصادية لجلب الضرر على الدهاقين لانه اتهمهم بموالة حركة عبد الرحمن بن الاشعث، ومع ذلك فان هناك من الروايات التاريخية ما يؤكد ان الحجاج الثقفي بعد ان صمم على اتخاذ مدينة واسط مدينة له ولجندته بدلا من البصرة والكوفة انجز عدة مشاريع تهدف الى احياء الاراضي في منطقة البطائح فانه عندما نزل واسط حفر نهري النيل والزالي واحيا الاراضي الواقعة عليهما.

لقد استمر الحجاج في عملية استصلاح الاراضي ومتابعتها حيث ولي حسان النبطي هذه المهمة (وهو مولى لبني ضبه) والى حسان هذا ينسب الحوض المعروف بالبصرة ((حوض حسان)) كما تنسب اليه المنارة الموجودة في البطائح التي تسهل عملية الملاحة، وقد نجح في استخراج مساحات غير قليلة من اراضي البطائح للحجاج ايام خلافة الوليد وهشام ابني عبد الملك بن مروان.

وتصنيف لبنا الروايات انه كان بكسكر في البطائح قبل حدوث الفيضانات نهر يقال له ((نهر الجنب)) فلما تبلطحت البطائح(اي عندما ظهرت البطائح وطغت المياه على الاراضي) تحول ذلك النهر الى اجام وسمى اجام البري، والاجمة منطقة غير صالحة للزراعة تكسوها غابة من القصب والشجر لذلك عندما قام الامويون بمشروع استصلاح اراضي البطائح تحولت هذه الاجام الى اراضي صالحة للزراعة وظهرت فيها ((الجامدة)) وهي قرية كبيرة جامعة من اعمال مدينة واسط بينها وبين البصرة مسافة^(١).

وهناك رواية اخرى تفيد بان السدود عندما انمكرت ايام ولاية الحجاج كتب بامرها الى الخليفة الوليد بن عبد الملك واخبره ان تكاليف سد هذه البثوق تبلغ ثلاثة الاف الف درهم(ما يعادل ثلاثة ملايين درهم) فاستكثرها الوليد لكن مسلمة بن عبد الملك وعد ان ينفق على سد هذه البثوق في البطائح شريطة ان يقطع الخليفة الاراضي المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد ان ينفق عليها المبلغ المذكور على ان يتولى الحجاج عملية الانفاق، فوافق الخليفة الوليد وبذلك تم لمسلمة استصلاح اراضي واسعة من طساسيج متصلة كما عمل على حفر نهر((السيبين)) وتالف الاكرة والمزارعين فعمرت بذلك تلك الاراضي.

ان هذه الاعمال المهمة في استصلاح الاراضي قد شجعت دون شك الاهالي على القيام بواجباتهم في هذا الاتجاه حيث اتسعت رقعة الاراضي المستصلحة، مما حدى ببعضهم الى الجاء ملك

(١) البلاذري: فتوح - ص ٢٨٨؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٩٥.

الاراضي المستصلحة ضياعاً كثيرةً للتعزز بمسئلة فإزادات، لهذا السبب مساحة الاراضي الصالحة للزراعة^(١) في البطائح.

وفيما عدا هذا المشروع الكبير لاستصلاح اراضي البطائح الواسعة فان هنالك اشارات تاريخية عديدة تؤكد ما اتخذهُ الخلفاء الامويون وعمالهم من اجراءات واعمال تهدف الى اصلاح الاراضي فقد ورد ان معاوية بن ابي سفيان قد اشترى ارضا في وادي القرى من اليهود ولم تكن انذاك ارضا معمورة فاحياها فتحوّلت الى ارض منتجة^(٢) وقام والي معاوية زياد باقطاع الناس القطائع في منطقة اطلق عليها ((زيادان)) وكان يقول للرجل الذي يقطع ارضا ((اني لا انفذ الا عمرتم)) ولذلك فانه كان يمهل الشخص المقطع مدة سنتين فان عمرها فهي له والا فانها تؤخذ منه. كما اتت اعمال الامويين بثمارها في مناطق اخرى، فقد تم استصلاح الاراضي الواقعة في منطقة رصافة الشام مما ازدهرت معه الزراعة في واحات منطقة تدمر^(٣).

٣- اعمال اخرى:

اهتم الامويون، خلفاء وعمال بشؤون الفلاحين ومتطلباتهم واعتنوا باحوالهم فما يذكر ان الحجاج الثقفي كان دائما يتعقب احوال الفلاحين واحوال الزراعة، فقد كان يكتب الى الخليفة عبد الملك كتباً عن احوال الامطار والزراعة^(٤) والتفت الى الفلاحين فاقترضهم قروضا وصلت قيمتها الى مليون درهم تشجيعاً لهم للعمل بنشاط اكبر من اجل تحسين الزراعة وتطويرها.

ان موقف الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز بالنسبة الى وضع الارض التي تم احياؤها واضح ودال على مدى اهتمامه بالشؤون الزراعية اذ كان هذا الخليفة يتابع امور الارض واحوالها خلال ما يذكره في كتبه التي اعتاد على توجيهها الى عماله في مختلف ارجاء الدولة، فقد ورد ان الراوي حكم بن رزين (او رزق بن الحكم) فقد قرأ في كتاب للخليفة موجه الى ابنة يقول فيه ((ان من احيا ارضا مينة ببنيان او حدث مالم يكن من احوال قوم ابتاعوها من احوالهم، او احبوا بعضا وتركوا بعضا فاجر القوم احياهم الذي احبوا ببنيان او حرث^(٥))).

وذكر ابو يوسف ان عامل الخليفة عمر بن العزيز، عدي بن ارباط، كتب اليه كتابا جاء فيه (اما بعد فان اناسا قتلنا لا يودون ما عليهم من الخراج حتى يمسه شيء من العذاب)) فرد عليه الخليفة العادل اكد فيه على سياسته العادلة وعدم الحاق الحيف والاذى والظلم بالفلاحين اذ قال فيه:

(١) البلاذري: فتوح، ص ٢٩٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٤٨.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٥٣، ٥٥، ص ٤١٩.

(٤) المصدر نفسه .

(٥) ابو عبيد: الاموال، ص ٢٩١.